

مقدمة

الحمد لله رب العالمين؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وبعد...

فالبيان؛ هو ما يبين به الشيء ويتضح؛ يقال بان الشيء بينا وتبينانا: اتضح فهو بين ومنه قوله ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة النور - الآية ٣٤) وكذلك: أبان الشيء فهو مبين كما قال الشاعر:

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها لأبان من آثارهن حذور
وتبين الشيء: ظهر. والتبيين: الإيضاح. والتبين - أيضاً - الوضوح ويقال: بان الحق يبين؛ فهو بائن^(١).

والبيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ. وقد روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة»^(٢). ومنه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [سورة الرحمن - الآيات ١ : ٤]. قيل إنه عنى به النبي ﷺ أى علمه القرآن الذى فيه بيان كل شىء. وقيل إنه عنى بالإنسان - هنا - آدم - عليه السلام. قال ابن منظور: ويجوز فى اللغة أن يكون الإنسان اسما لجنس الناس جميعا، ويكون - على هذا - علمه البيان؛ أى جعله مميّزا له حتى انفصل الإنسان ببيانه وتمييزه من جميع الحيوان. وهذا أقرب ما يكون لفهم الآية الكريمة، وأن البيان فيها منة عظيمة تفضل الله بها على الإنسان تكريما منه على سائر المخلوقات، ويكون معنى البيان - وكما يقول الجاحظ - : «اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصله كأننا ما كان ذلك البيان ومن أى جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فى أى شىء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع»^(٣).

(١) انظر: لسان العرب، مادة (ب ي ن)

(٢) حديث صحيح البخارى ٥٧٦٧.

(٣) البيان والتبيين ٧٦/١

وكان الجاحظ - بذلك - يجعل وسائل البيان متعددة؛ من لفظ وإشارة وخط وعقد^(١) ونسبة؛ وهي الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف. والقرآن كله في نهاية حسن البيان.

هذا هو البيان بمعناه العام. وأما البيان البلاغي فهو علم من علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبدیع، وهذا البيان هو لبيان المعنى بالصورة الفنية كالاستعارة وغيرها من موضوعات علم البيان البلاغي.

وأردت بعنوان الإعجاز التشريعي والبياني لسورة النساء؛ البيان بمعناه العام أي بمعنى الكشف عن معاني السورة بكل ما تحمله من دلالات كدلالة اللفظ ودلالة التركيب ودلالة السورة والأحكام الفقهية وغير ذلك مما تناولته السورة من موضوعات مهمة تنظم شئون المجتمع وترسم العلاقة الصحيحة بين الإنسان وربه ثم بين الإنسان وأخيه الإنسان.

سورة النساء:

سورة النساء الرابعة في المصحف، والثالثة في مصحف أبي بعد الحمد والبقرة، والثانية في مصحف عبد الله بن مسعود بعد البقرة، وإحدى السبع الطوال^(٢). وقد ارتبطت بما قبلها وما بعدها بروابط قوية:

فمن ارتباطها بالفاتحة تفسير: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة - الآية ٧]، بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ وَابَعُوا وَأَلْبَسُوا﴾ [سورة النساء - الآية ٦٩].

ووجه ارتباطها بالبقرة أنه أجمل في البقرة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة - الآية ٢١]، وزاد في النساء قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [سورة النساء - الآية ١].

ولما كانت آية التقوى في سورة البقرة غاية، جعلها في أول هذه السورة مبتدأ لها، وأجمل في سورة البقرة: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [سورة البقرة - الآية ٣٥]، وبين في سورة النساء أن زوجته خلقت منه، في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [سورة النساء - الآية ١].

(١) العقد: هو ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين؛ يقال له حساب اليد.

(٢) السبع الطوال: من البقرة إلى براءة، الإتيان ١ / ٨٤.

وأجمل في سورة البقرة آية اليتامى، وآية الوصية، والميراث والوارث في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ ﴿٢٢٣﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٢٣]، وفضل ذلك في هذه السورة أبلغ تفصيل.
 وأجمل في البقرة من الأنكحة ﴿وَلَا مَؤْمِنَةٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾ ﴿٢٢١﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٢١] وفضله في سورة النساء بشروطه.

وذكر الصداق في البقرة مجملاً في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ ﴿٢٢٩﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٢٩] وشرحه في سورة النساء مفصلاً.
 وذكر في سورة البقرة الخلع^(١)، وذكر في سورة النساء أسبابه ودواعيه؛ من النشوز وما يترتب عليه، وبعث الحكمين.

وأما ارتباطها بسورة آل عمران: أن الأخيرة ختمت بالأمر بالتقوى وافتتحت هذه السورة به، وهذا - كما يقول السيوطي^(٢) - من أكد وجوه المناسبات في تركيب السور، وهو نوع من البديع يسمى تشابه الأطراف كما سوف نتناوله - إن شاء الله - بالبيان.
 وقد ذكر في آل عمران قصة أحد مستوفاة، وذكر في هذه السورة ذيلها في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ ﴿٨٨﴾ [سورة النساء - الآية ٨٨].

وذكر في آل عمران الغزوة التي بعد أحد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ ﴿١٧١﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٧٢]، وأشير إليها في سورة النساء بقوله تعالى ﴿وَلَا تَهْتَفُوا فِي آتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُونَ كَمَا تَأْمُونُونَ﴾ ﴿١٠٤﴾ [سورة النساء - الآية ١٠٤].

وذكر في آل عمران قصة خلق عيسى - عليه السلام - بلا أب إذ أقيمت له الحجة بآدم. وفي ذلك تبرئة لأمه، خلافاً لما زعم اليهود - عليهم اللعائن - وتقرير لعبوديته، خلافاً لما ادّعته النصارى، وقد ذكر في سورة النساء الرد على الفريقين معاً؛ فرد على اليهود بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٥٦﴾ [سورة النساء - الآية ١٥٦]، وعلى النصارى بقوله: ﴿يَتَّاهَلُ الْكُفْرُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ﴿١٧١﴾

(١) خَلَعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ خَلْعًا: طَلَقَهَا بِغَدِيَّةٍ مِنْ مَالِهَا، وَخَالَعَتْ زَوْجَهَا: طَلَبَتْ أَنْ يَطْلُقَهَا بِغَدِيَّةٍ مِنْ مَالِهَا، وَتَخَالَعُ الزَّوْجَانِ اتَّفَقَا عَلَى الطَّلَاقِ بِغَدِيَّةٍ ١/ ٢٥٠ - المعجم الوسيط.
 (٢) أسرار ترتيب القرآن بتحقيق عبد القادر أحمد عطا.

[سورة النساء - الآية ١٧١] إلى قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [سورة النساء - الآية ١٧٢] وذكر في آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذِي هَذَا وَقُلِي لَهُنَّ إِنِّي مَأْمُورٌ بِذَلِكَ فَتَلَاها وَتَوَلَّى وَجْهَهَا كَالضَّالَّةِ الْغَنَمِ لَقَدْ كَفَرَ أَصْحَابُ الْكَلْبِ الْأُولَىٰ فَتَوَلَّىٰ غِبَّاهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [سورة آل عمران - الآية ٥٥]، ورد في سورة النساء على من زعم قتله بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [سورة النساء - الآية ١٥٧] بل رفعه اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء - الآيات ١٥٧ : ١٥٨].

وأما ارتباطها بالمائدة ففي أنها فصلت أحكام السرقات وقطاع الطريق في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [سورة المائدة - الآية ٣٣]. لتعلقهم بالذهب والفضة الواقعين في آية آل عمران ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٤]. ووقع في سورة النساء إشارة إلى ذلك في قسمة المواريث^(١).

وترتيب آيات سورة النساء توقيفي، كما هو الشأن في آيات القرآن كله، وقد ثبت ذلك بالسنة المطهرة؛ فقد روى عن ابن عباس أنه قال: «قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المغانى، وإلى براءة وهي المثني فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتوهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله - ﷺ - تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»^(٢).

وآيات سورة النساء في المصحف ٧٦ ومائة آية بينما ذكر الخازن أنها خمس وسبعون ومائة آية، وخمس وأربعون وثلاثة آلاف كلمة وثلاثون وست عشرة ألف حرف^(٣). وقد اتبعت في هذه الدراسة عدة مناهج بحسب الموضوع الذي أتعرض له في هذه السورة الكريمة؛ فالمنهج التحليلي لتحليل الآية الكريمة وبيان الموضوع الذي تتناوله، والقاء الضوء عليه، والمنهج التاريخي لمعالجة ما جاء في هذه السورة من موضوعات تتناسب وطبيعة

(١) انظر في ذلك كله: أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، ص ٩٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ص ٨.

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (تفسير سورة النساء).

المنهج، والمنهج الفنى فى دراسة الموضوعات الفنية كالموضوعات البلاغية وغير ذلك من الموضوعات التى اقتضتها طبيعة الدراسة.
وما أردت بعملى هذا إلا التقرب إلى رب الأرض والسموات علّه - سبحانه - أن يغفر لى ولوالدى الخطايا والزلات وأن ينفع به المسلمين فى شتى بقاع المعمورة والله من وراء القصد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دكتور/ أحمد عبد الوارث مرسى